نظرية التفاعلية الرمزية : Symbolic Interaction

برز مبـدأ ارتباط العادات اللغـوية بسلوك الناس فى علم الاجتمـاع كطريقة لتحليل كـيف يكتسب الناس تحديدات مشـتركة لمعانـى الأشياء، بما فى ذلك

قواعد الحياة الاجتماعية، وذلك بالتفاعل مع الآخرين عن طريق اللغة، أو كما يميل علماء الاجتماع إلى القول بأنه من خلال «تبادل التفاعل الرمزى».

وهناك خيطان منفصلان إلى حد ما حول فكرة تبادل التفاعل الاجتماعى والمعانى المشتركة كأساس للتفسير الفردى للعالم الموضوعى. وقد تبنى الخيط الأول عالم النفس الاجتماعى **«تشارلز هورتون كولى»** الذى رأى أن الناس يستطيعون الانتساب إلى بعضهم بعضًا ليس على أساس صفاتهم الموضوعية كما هى موجودة فى الواقع، ولكن من خلال **«الانطباعات»** التى يخلقها كل منهم لدى الآخرين من خلال عملية التفاعل فيما بينهم. وأطلق «كولى» على هذه الانطباعات اسم **«الأفكار الشخصية»**. فنحن نكوّن فكرة شخصية عن كل فرد نعرفه، وكذلك عن أية جماعة من الناس. وبالتالى تصبح «الفكرة الشخصية» عبارة عن بناء للمعنى، أى مجموعة من الصفات التى نتخيلها ونسقطها على كل من أصدقائنا ومعارفنا كتفسير لشخصياتهم الواقعية، وكقاعدة للتنبؤ بسلوكهم، والتنبؤ بسلوك الآخرين الذين يبدون مشابهين لهم.

أما الخيط الثانى فقد تبناه العالم **«جورج هربرت ميد»** الذى رأى أن المقدرة على الاتصال بالآخرين تعتبر مفتاحاً لأفكار الفرد، وعلى الرغم من أن الإنسان يستطيع أن يبنى مفاهيم عن نفسه بالطريقة التى اقترحها «تشارلز كولى»، فإنه يستطيع أن يتعلم أيضاً كيف يتوقع تصرفات الآخرين، وما سوف يعتبرونه سلوكاً مقبولاً اجتماعيًا.

وأشار «جورج ميد» إلى أنه لكى ننتسب للآخرين، فإن علينا أن «نلعب أدوارهم»، بمعنى أننا يجب أن نتعلم متطلبات القيام بجميع الأدوار المحددة فى جماعة، ثم نستخدم هذه المفاهيم لتوقع كيف يستجيب الآخرون فى أدوار معينة لتصرفاتنا. وسوف نتعرض لهاتين النظريتين تفصيلاً عند استعراض نظرية التوحد فى الفصل الخاص بالنظريات المفسرة للعنف فى وسائل الإعلام.

وهناك امتداد معاصر لمفهوم التفاعل الرمزى عند «كولى» و «ميد» يسميه علماء النفس الاجتماعى «نظرية التسمية أو البطاقة أو العلامة». وتستخدم هذه النظرية فى دراسة السلوك المنحرف. والفكرة الأساسية لهذه النظرية هى أن الشخص الذى يخرق القانون أو يتجاوز أى سلوك طبيعى « **يلمغ** » رسميًا بواسطة إحدى وكالات المجتمع. وهذه **العلامة** أو الاسم أو الوصف الذى يطلق على من ارتكب المخالفة، يصبح عندئذٍ صفة كبرى أو معنًى عامًا بالنسبة للشخص، ويحدد كيف يتصرف الآخرون تجاهه، ويؤدى ذلك فى النهاية إلى إحداث تغييرات فى مفهوم الشخص عن ذاته. وعلى سبيل المثال فإن صفات مثل : مريض عقلى أو «صاحب سوابق» أو «حدث منحرف» أو «عاهرة»، كلها تثير معانى قوية، وتجعلنا نعامل الشخص الموصوف بها بطريقة سلبية. ومن الصعب الهروب من هذه التصنيفات حتى لو كانت تمثل فترة عارضة من حياة الفرد. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الصفات قد تكون ظالمة، وعلى سبيل المثال: فإن الفرد قد يشفى من المرض العقلى، أو يصحح من سلوكه المنحرف، ومع ذلك يظل فى نظر المجتمع حاملاً لهذه الصفة أو تلك العلامة. (ديفلير وروكيتش ١٩٩٣ : ٣٥٠ - ٣٥٣).

مع قبول المخاطرة بإمكانية المغالاة فى التبسيط، يمكن تحديد الفروض الأساسية لنظرية التفاعلية الرمزية فيما يلى:

١- إن أفضل طريقة للنظر إلى المجتمع هى اعتباره نظاماً للمعانى. وبالنسبة للأفراد فإن المساهمة فى المعانى المشتركة المرتبطة برموز اللغة تعد نشاطاً مرتبطاً بالعلاقات بين الأشخاص تنبثق منه توقعات ثابتة ومفهومة لدى الجميع، تقود السلوك الإنسانى فى اتجاه النماذج التى يمكن التكهن بها.

٢-من وجهة النظر السلوكية، تعد الحقائق النفسية والاجتماعية بناءً مميزاً من

المعانى. ونتيجة لمشاركة الناس فى التفاعل الرمزى الفردى والجماعى، فإن تفسيراتهم للواقع تمثل دلالة متفقاً عليها من الناحية الاجتماعية، وذات إيقاع محدد من الناحية الفردية.

٣- إن الروابط التى توحد الناس والأفكار التى لديهم عن الآخرين، ومعتقداتهم حول أنفسهم، تعد كلها أبنية شخصية من المعانى الناشئة عن التفاعل الرمزى.. وهكذا، فإن المعتقدات الذاتية لدى الناس عن أنفسهم وعن الآخرين هى أهم حقائق الحياة الاجتماعية.

٤- إن السلوك الفردى فى موقف ما يتوقف على المضامين والمعانى التى تربط الناس بهذا الموقف.. وهكذا، فالسلوك ليس رد فعل أوتوماتيكيًا أو استجابة آلية لمؤثر خارجى، ولكنه ثمرة أبنية ذاتية حول النفس والآخرين والمتطلبات الاجتماعية للموقف.

ولكن .. ماذا عن علاقة هذه الأمور بدراسة الاتصال؟

من الواضح أن وسائل الاتصال الجماهيرية تمارس دوراً مهمًا فى المجتمعات الحديثة. فهى تقدم تفسيرات للواقع بالكلمة والصورة والحركة واللون وتضفى على من يتلقون الرسالة الإعلامية صبغة ذاتية. ويبنى الأفراد معانى مشتركة للواقع المادى والاجتماعى من خلال ما يقرأونه أو يسمعونه أو يشاهدونه. ومن ثمّ، فإن سلوكهم الشخصى والاجتماعى يمكن أن يتحدد جزئيًا من خلال التفسيرات التى تقدمها وسائل الإعلام للأحداث الاجتماعية والقضايا التى لاتوجد مصادر معلومات بديلة عنها. ويعد هذا أحد أعقد النماذج المستخدمة فى بحوث الاتصال، وهو ضرورى لفهم التأثيرات غير المباشرة وبعيدة المدى لوسائل الإعلام سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أم المجتمعات. (ديفلير وروكيتش ١٩٩٣: ٧٣ - ٧٤).

ولعل المؤلّف الكلاسيكى الذى كتبه **«والترليبمان»** بعنوان «الرأى العام» سنة ١٩٢٢ من أبرز الأمثلة على أن الصفات الحقيقية للواقع الاجتماعى ليست لها علاقة غالباً بمعتقدات الناس حول هذا الواقع. فقد ناقش هذا الكتاب كيف أن التفسيرات التى تقدمها الصحف عن الأحداث يمكن أن تغير بشكل كبير تفسيرات الناس عن الواقع الحقيقى، وبالتالى تغير أيضًا من أنماط سلوكهم تجاه هذا الواقع. والنقطة المهمة التى سعى « ليبمان » لإيضاحها هى أن طريقة تصوير الصحافة للعالم خلال فترة الحرب العالمية الأولى كانت زائفة غالباً لأنها كانت مضللة جداً، وتخلق صوراً مشوهة فى الأذهان عن العالم الحقيقى.. وعلى سبيل المثال: عندما ذكرت الصحف فى ٦ نوفمبر ١٩١٨ نبأ الاتفاق على الهدنة (وكان ذلك خبراً زائفاً لأن الهدنة لم تتحقق إلا بعد ذلك بخمسة أيام)، كان الناس يحتفلون ويبتهجون بسبب صورة زائفة عن الواقع. وفى نفس الوقت، كان ألوف الشباب يلقون حتفهم فى ميدان المعارك.

واستنتج «ليبمان» من ذلك أن الناس يتصرفون ليس على أساس ما يحدث أو ما قد وقع فعلاً، ولكن على أساس ما يعتقدون أنه الموقف الحقيقى. وهذا الموقف حصلوا عليه من الصور التى نقلتها لهم الصحف، وهى معانٍ وتفسيرات ليس لها فى الغالب سوى نصيب محدود مما حدث فعلاً، وهذا من الممكن أن يؤدى إلى سلوك لا علاقة له بحقيقة ما يجرى فى الواقع الحقيقى.

والذى لم يتوقعه «ليبمان» فى ١٩٢٢ أن نظريته عن الصحافة تنطبق أيضًا على وسائل الإعلام الأخرى مثل : الراديو والتليفزيون، والتى تنقل أيضاً بناءات مشوهة أو زائفة عن الواقع الاجتماعى. (ديفلير وروكيتش ١٩٩٣ : ٣٥٩ - ٣٦٠).